نشوء الإسلام

التّقاليد الكلاسيكيّة

من منظور معاصِر

نشوء الإسلام

التّقاليد الكلاسيكيّة

من منظور معاصِر

تأليف

كبرئيل سعيد رينولدز

نقله إلى العربيَّة

سعد سعدي وعبّود سعدي

دار المشرق - بيروت

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ٢٠١٧
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠ لبنان
www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-8160–6

التوزيع: مكتبة إسطفان
موزّعون–ش.م.ل.
ص.ب: ٥٠١٦٥، فرن الشبّاك
بيروت - لبنان
هاتف: ٢٨٣٣٣٣ (٠١)
فاكس: ٢٨٩٣٣٣ (٠١)
info@librairiestephan.com
www.librairiestephan.com

مقدِّمة المترجمَين

كيف نشأ الإسلام؟ ما المفاتيح العلميّة المؤدّية إلى الجواب؟ ما العناصر التي يمكن التعويل عليها في التراث الإسلاميّ في بناء أساس مكين للوصول إلى جواب علميّ رصين؟ ما الحَبُّ المُتَبَقّي الصالح للبحث العلميّ بعد غربلة النقل بغربال العقل؟ مقارنة بركام الكتب الكئيبة الرتيبة التي تتناول موضوع الإسلام يبدو هذا الكتاب طاقة ورد فائقة الجمال بين ركام من الأخشاب والأحطاب، وأشبه بينبوع ماء عذب في صحراء من الملح، وسراج مضيء في ليل حالك الظلام. هي دراسة علميّة في أرقى الأوساط الأكاديميّة على مستوى العالم مؤسّسة على أحدث معطيات البحث العلميّ الحديث في هذا الميدان. وبالرغم من أنَّ الدراسات الأكاديميّة تتّسم غالبًا بالجفاف والغموض عند القارئ غير المختصّ، وجدنا لهذا الكتاب جاذبيّة السهل الممتنع تشدّ القارئ من أوَّل سطر إلى آخر سطر فيه، وتضيء في عقله جزرًا كانت غارقة في ظلمة الجهل، وتشرع أمامه نوافذ وأبوابًا جديدة للبحث المثمر الجادّ.

الشغف الذي يستولي على قارئ هذا الكتاب كوَّن حافزًا إضافيًّا عميقًا للقائمين على ترجمة الكتاب أن يترجموا بشغف أيضًا. وظلّ هذا الشغف متزايدًا من بدء الترجمة إلى نهايتها. فكان كلّ من المترجمين يقوم بدور المدقّق لزميله، وكم طال البحث عن لفظ واحد مكافئ في العربيّة للفظ في النصّ الأصليّ بالإنكليزيّة. وضع المترجمان نصب أعينهما تحقيق أعلى مستوى في جودة الترجمة يقوم على التوفيق بين الدقّة العلميّة والوضوح وموافقة السليقة اللغويّة في العربيّة، وهي مبادئ تقتضيها الترجمة الجيّدة يسيء غيابها بالغ الإساءة إلى كتاب في هذا المستوى العالي من الجودة. علاوةً على ما سبق، قام المترجمان بالبحث عن المصادر والمراجع العربيّة التي اقتبس منها الكاتب لتزويد القارئ هذه الاقتباسات كما هي في النصّ العربيّ الأصليّ تجنّبًا لتعريب ترجمتها الإنكليزيّة. ولا يخفى ما يتطلّبه هذا من ثقل لا يخفّف وطأته سوى حفظ قدر الكاتب الكبير وحرمة القارئ المثقّف. سعادة المترجمين

تكمن في ثقتهما بترجمة كتاب سيكون متعة عقليّة وفتحًا معرفيًّا لكلّ من قدّر له أن يقرأه.

سعد سعدي وعبّود سعدي

تصدير

قصّة نشوء الإسلام، كما تُروى عادةً، واضحة جليّة. وُلِدَ محمّد في مكّة، المدينة الوثنيّة في غرب الجزيرة العربيّة العام ٥٧٠م. وفي الأربعين من عمره بدأ بالمناداة بموحيات من الإلٰه الواحد الحقيقيّ، إله إبراهيم وموسى وعيسى. حين رفضه معظم أهل مكّة الوثنيّين هاجر محمّد إلى يثرب المدينة الواقعة إلى الشمال من مكّة العام ٥٢٢م. وهناك فاز بولاء العرب وأخضع قبائل اليهود التي قاومته، وَأخيرًا هاجم قوّات المكّيّين الوثنيّين وأخضعهم. حين مات محمّد العام ٦٣٢م كانَ قد أسّس دولة صغيرة على الإسلام، الدين الموهوب له من الله. خلفاؤه أطلقوا حملة عظيمة من الفتوحات ونشروا الإسلام في أرجاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

أمّا السؤال المتعلّق بمدى دقّة هذه القصّة التاريخيّة فأقلُّ وضوحًا. مصادرنا عن نشوء الإسلام ليست كنظيرتها المتعلّقة بدراسة المسيحيّة واليهوديّة، وهي تواجه الباحثين بصعوبات استثنائيّة. القرآن نصٌّ قديم ويضُمُّ على وجه التوكيد موادَّ أصيلة من زمن الأصول الإسلاميّة، ولكنّه لا يكاد يُقدّم معلومات عن سيرة محمّد الذاتيّة أو صحابته. مصادر إسلاميّة أخرى مثل التفاسير وكتب السيرة النبويّة تبدو غالبًا مستندة إلى القرآن (وليست تقارير عمليّة مستقلّة لنقل شفهيّ). المصادر غير الإسلاميّة من زمن نشوء الإسلام صامتة صمتًا يثير الفضول. إنّها ببساطة لا تأتي على ذكر نبيٍّ في مكّة. في ضوء هذه التعقيدات، يمتلك الباحثون اليومَ خيارًا هامًّا حين يبدأون بوصف جذور الإسلام. في إمكانهم ببساطة أن يختاروا أن يتَّبِعوا سِيَرَ محمّد الإسلاميّة التقليديّة باختيار الأجزاء التي يرونها أجدر من غيرها بالثِّقة ويضيفون إليها تفسيرهم. هذه هي، على سبيل المثال، مقاربة كارين أرمسترونغ في عملها: **محمّد نبيُّ زماننا** (٢٠٠٦). أرمسترونغ تُركّزُ على عناصرَ بعينِها في السيرة التقليديّة تجعل النبيَّ المسلمَ مخاطبًا جمهورًا غربيًّا حديثًا. وهذه مقاربة روبرت سبنسر أيضًا في عمله: **الحقيقة عن محمّد** (٢٠٠٦). غير أنَّ سبنسر، على النقيض، يُركِّز على عناصر في السيرة التقليديّة تجعل

النبيَّ المسلم غير مخاطب جمهورًا غربيًّا. يُمكن الباحثين أيضًا أن يُعرِضوا عن السِّيَر الإسلاميّة التقليديّة ويقدِّموا سيناريوهات جديدةً لنشوء الإسلام. هذه هي مُقاربة كتاب **الجذور الخفيّة للإسلام** (٢٠١٠)، وهو مجموعة مقالات لعدد من الكتّاب يتناولون فيها بالدراسة اللفظ القرآنيّ «محمّد» (لفظ عربيّ بمعنى ممدوح) ويرون أنّه ليس اسمًا لنبيٍّ جديدٍ بل صفة لعيسى، وَأنَّ محمّد التقليد الإسلاميّ، بحسب تقديرهم، لم يوجد قطّ.

أمّا فرانسيس بيترس فيتَّخذُ مقاربةً مختلفة. في كتابه: **محمّد وجذور الإسلام** (١٩٩٤). بادئ ذي بدء يعترف بيترس بقلّة ما يُعرَف عن جذور الإسلام بشكل موثوق. «رغم الزمن الطويل من البحث، فإنَّ تاريخيّة محمّد ما زالتْ محاطة بمصاعب عظيمة من تراكم القشور التَقويّة عبر القرون، وبمصاعب الموادِّ المصدريّة على حدٍّ سواء» (12). ومع ذلك، يقرّر بيترس أن يؤجّل مناقشة هذه المصاعب. ويستطرد في متن الكتاب «كأنَّ» القصّة التقليديّة موثوقة: «هذه قضيّة يجب معالجتها ولكنّها تقنيّة إلى درجة عالية، لذلك فضّلتُ وضعها في ملحق بدلًا من وضع هذه الأشياء الشاقّة بين موضوع الكتاب والقارئ» (12). وهكذا، يُزَوّد بيترس القارئَ في متن كتابه روايةً تقليديّة تمامًا عن جذور الإسلام، وهي رواية بحسب حكمه غير موثوقة من الأساس.

مقاربة هذا العمل

مقاربة هذا العمل مختلفة. في الجزء الأوّل أعرض القصّةَ التقليديّة لنشوء الإسلام من مولد محمّد إلى موت ابن عمّه وصهره عليّ (بحسب التواريخ التقليديّة، ٥٧٠-٦٦١ م)؛ هذه المقدّمة مقسَّمة بحسب حياة محمّد في مكّة (٥٧٠-٦١٠م؛ الفصل الأوّل)، حياة محمّد في المدينة (٦١٠-٦٣٢م؛ الفصل الثاني)، ومسيرة الخلفاء الأربعة الأوائل (٦٣٢-٦٦١م، الفصل الثالث). غير أنّي في أثناء هذا العرض أناقشُ كيف ولماذا كتبَ الباحثون المسلمون المتديّنون قصّة الإسلام بهذا الأسلوب. وَأشرتُ، كُلَّما كانَ مُمكنًا، إلى العناصر المعقولة من الرواية التقليديّة عن جذور الإسلام، وَإلى العناصر الأقلّ معقوليّة. وفي الوقت نفسه، أردتُ لهذا القسم أن يجعل القرّاءَ يستوعبون الفهمَ الإسلاميّ الخاصّ بمحمّد وخلفائه المتديّنين.

في الجزء الثاني أقدّم عرضًا بحثيًّا نقديًّا لنشوء الإسلام من خلال عرض القرآن

مصدرنا الأقدم عن نشوء الإسلام. في البداية أقدّم إلى القارئ عرضًا عامًّا لرسالة القرآن الدينيّة، والإستراتيجيّات الَّتي يستخدمها القرآن ليُقنِعَ القارئ بتلك الرسالة (الفصل ٤). ثمَّ أوضحُ بالأمثلة علاقة القرآن القريبة بأدب الكتاب المُقدَّس وَتقاليدِه (الفصل ٥). هذا التوضيح التمثيليّ - الّذي يُلمِحُ إلى أنّ القرآن بُشِّرَ به في وَسَطٍ كانت التقاليد اليهوديّة والمسيحيّة (خاصّةً) معروفة جيِّدًا - يقودُ إلى إعادة النظر في سيرة محمّد التقليديّةِ (الفصل ٦). وَأخيرًا أسأل عمّا يُمكنُ القرآن نفسه أن يُعلِّمَنا عن قصّة جذور الإسلام. بهذه النقطة سنكونُ قد عملْنا أشياءَ بأسلوبٍ مناقضٍ تمامًا للأسلوب الذي تُعْمَلُ بِهِ عادةً. وفي وَقتٍ يرى فيه مُعظَمُ الباحثينَ القرآنَ من خلال منظور التاريخ التقليديّ لنشوء الإسلام، سنرى نحن تاريخ نشوء الإسلام من خلال منظور القرآن. علاوة على ذلك، سيُقدّم هذا العملُ إلى القارئ نظرة ثاقبة في الرؤى الإسلاميّة المُعاصرة للقرآن ولسيرة محمّد. في الجزء ٣ (الفصل ٨) أُبيّن بالأمثلةِ أنَّ تفاعلَ الإسلام مع الغربِ أدّى إلى تطوير أفكار جديدة عن القرآن وسيرة محمّد اليوم.

الملامح الفارقة في هذا الكتاب

قبل الانعطاف إلى جسم الكتاب الأساسيّ، قد يكون من المفيد للقارئ تزويده بعضَ الملاحظات العمليّة. في الغالب الأعمِّ تَجنَّبْتُ المصطلحات العربيّة التِّقنيّة. حين أُوظِّف مصطلحات كهذهِ أبادر عَلى وجه العموم إلى تعريفها حالا في مواضعها. علاوةً على ذلك يجد القارئ في آخر الكتاب شرحًا للمصطلحات العربيّة والإنكليزيّة التّقنيّة المستخدمة على نحوٍ تخصّصيّ، ونُبَذًا عن الشخصيّات التاريخيّة والدينيّة في الإسلام الباكر. بَدلًا من استخدام ملاحظات في أسفل الصفحة أو نهاية الكتاب، أشير إلى مصدر الاقتباسات بمختزلات للمصدر بين قوسَيْن. الصيغة الكاملة لمختزلات المصادر تجدها مع تعريف بهذه المصادر في قسم «المصادر والمراجع وَقراءات للمستزيد» في نهاية الكتاب. ويقدّم هذا العمل عددًا من وسائل الإيضاح تزوّد القارئ نظراتٍ ثاقبة عن نشوء الإسلام. إفتتاحيّة العمل تتضمّن خريطة مرجعيّة للشرق الأوسط، وخطًّا زمنيًّا يُعرض على القارئ تسلسلَ تطوّر الإسلام الزمنيّ التقليديّ. ورسم توضيح لخلفيّة أسرة محمّد ونسله، بحسب رواية سيرة محمّد التقليديّة .

ثمّة مصادر أخرى يجدها القارئ ضمن متن الكتاب، مصادر أخرى في متن العمل

نفسه. يتخلّل ثنايا هذا العمل صورٌ لمخطوطات إسلاميّة ونصبٌ ونُسَخٌ لموضات إسلاميّة فنيّة، وَرسومٌ وَخرائط المقصود منها هو أن نوضّح بالأمثلة الأفكار الإسلاميّة والتقاليد. سيجد القُرّاءُ أيضًا ثلاثة نماذج من مربّعات النصوص: منتخبات من المصادر الإسلاميّة؛ مقدّمات بسيطة للموضوعات الأساسيّة في الدين الإسلاميّ (مثل الحجّ إلى مكّة، فكرة الجان، وفكرة الجهاد؛ وسِيَرٌ موجزة لشخصيّات مفتاحيّة في مربّعاتٍ نصيّة بعنوان «شخصيّات في الإسلام». وعلاوةً على ذلك، في نهاية كلّ فصل ثمّة أسئلة للدراسة لتأمّل الفرد أو نقاش المجموعة).

في نهاية هذا العمل (علاوةً على قسم «المصادر والمراجع وَقراءات للمستزيد»)، سيجد القرّاء ملحقًا عن شخصيّات، أماكنَ، وموضوعات، مع قائمة مفردات من أسماء أعلام ومصطلحات تقنيّة. أخيرًا، يجدر بالقرّاء أن يُلاحظوا أنّ مصادر متعلّقة **بنشوء الإسلام**، ومن ضمنها روابط لمواقع ثقافيّة موثوقة، يمكن الوصول إليها بالإنترنيت في http://fortresspress.com/author/gabriel-said-reynolds.

شكر

قمتُ بمعظم البحث لهذا الكتاب، وكتبتُ معظمَ روايته، طوال سنة استراحة من جامعة نوتردام، كنت مُقيمًا معظم أيّامها في القدس وبيروت وبروكسيل. فَأنا بناءً على ذلك مدينٌ لجامعة نوتردام بهذه الاستراحة التي كانت لي فرصة سانحة. وأنا ممتنٌّ بوجهٍ خاصّ لجون كافادیني، رئيس قسم اللاهوت السابق، وخليفته السابق مات آشلي، اللّذَين دعماني في عملي الأكاديميّ وفي مهنتي التعليميّة. في نوتردام استفدتُ مرارًا وتكرارًا من العمل الممتاز الذي كتبه شيرون برايس ولورين فوكس، المساعدان الإداريّان في قسم اللاهوت. وتلقّيتُ عونًا كبيرًا من ديفان آرد وناثانئيل جونسون، المجتهدَين بوجهٍ استثنائيّ والموهوبين في عملهما كأستاذين مساعدين، وأضرب صفحًا عن ذكر الأصدقاء المخلصين. أنا ممتنٌّ لحنّا هامفيل باريت الذي ساهم بعون فائق التقدير في قراءته التنقيحيّة مخطوطَ هذا العمل، حين كنتُ في أمسّ الحاجة إلى العون. إنّ سنة التفرّغ للبحث صارت واقعًا بعطيّة عظيمة من معهد لويسفيل، له من أعمق آيات الامتنان. أرجو أن يكون هذا العمل، جزئيًّا على الأقلّ، مُبَرِّرًا للثّقة الّتي وُضِعَتْ فيَّ.

إنّ هذا العمل نتاج الفكر الأكاديميّ الّذي تلقّيتُه من الزملاء الأساتذة والأصدقاء والباحثين. وأنا مَدين على نحو خاصّ لسمير خليل سمير الّذي علَّمني أهميّة الفكرة الواضحة والمثابرة البحثيّة، مع أنّي بأقصى الجهد لا أبلغ مستواه في أيٍّ منهما. واستفدتُ أيضًا من محادثات عديدة مع صديق مهدي عزيز، وهو باحث عظيم الوضوح وفائق اللطف. وبالقدر ذاته أنا ممتنّ لصداقتي مع عمران البدوي، وهو أيضًا باحث ممتاز ثاقب النظرة.

لقد تعلَّمتُ الكثير (وما زلت أتعلّمُ) في أثناء عملي التعليميّ في صفوف قسم اللاهوت بجامعة نوتردام. وجودي باحثًا في الإسلاميّات والقرآن، ضمن الهيئة

التدريسيّة الكاثوليكيّة للّاهوت ساعدني على رؤية الإسلام، والقرآن بوجهٍ خاصّ، من خلال منظور أوسع. في الوقت الذي رأيتُ فيه معظم أقسام الدراسات الدينيّة والشرق أدنويّة تُعَلّمُ الإسلامَ في ضوء التقليد الإسلاميّ فحسب، واجهتُ في نوتردام تحدّيًا أن أفكّر في علاقة أصل الإسلام في ضوء التراث اليهوديّ والمسيحيّ، وأن أفكّر في القرآن في ضوء أدب الكتاب المُقَدّس. في الوقت نفسه، أظهرت جامعة نوتردام غالبًا بالأمثلة العمليّة، في داخل غرف الدرس وخارجها، كيف أنّ جامعة كاثوليكيّة مكرّسة بشكل صحيح لتراثها الخاصّ، يمكنها أن تُقارِبَ تراثًا آخر بقدر من التقدير والتعاطف يزيد بوجهٍ عامّ على مقاربة في جامعات علمانيّة. لقد اكتشفتُ شيئًا شبيهًا في معهد إسلامو كريتين في جامعة القدّيس يوسف ببيروت، حيث كنتُ أستاذًا زائرًا طوال السنة الأكاديميّة ٢٠١٠-٢٠١١.

حين بلغ هذا العمل مراحله النّهائيّة، بدأت بشكل مُتزايد أعتمد على الفريق الممتاز «فروترس برس»، ومن ضمنه روس ميلر، المحقّق الأساسيّ، وماريسا وورلد، مدير مشروعات السينيور. هذا العمل نموذجيّ بين المقدّمات للإسلام، ومع ذلك فقد كانوا داعمين ومعينين من البداية إلى النهاية.

مع ذلك، لم أتلقَّ دعمًا يومِيًّا أعظم ممّا تلقّيتُ من زوجتي العزيزة لورديس. أنا ممتنّ من كلّ قلبي للحبّ الّذي أرتْني ولأجل العطيّة فائقة الثَّمَن، لأجل أولادِنا لوقا وعمنوئيلَ وثيريزا ورينيه. وأودُّ أيضًا أنْ أشكرَ أصدقاءَنا، من آل كهيا ومتّى وأبو خالد وإلياس، وبولوان ومتكلف. أنا ممتنٌّ أيضًا لوالديّ وأعمامي جاري، كارول، لازاروس، إلياس ورينيه. إليهم جميعًا وإلى إرساليّات الإحسان في سدّ البوشريّة (بيروت) التي ترعى بحبّ عظيم الأطفال المحرومين من الوالدين، أُقَدّم هذا العمل.

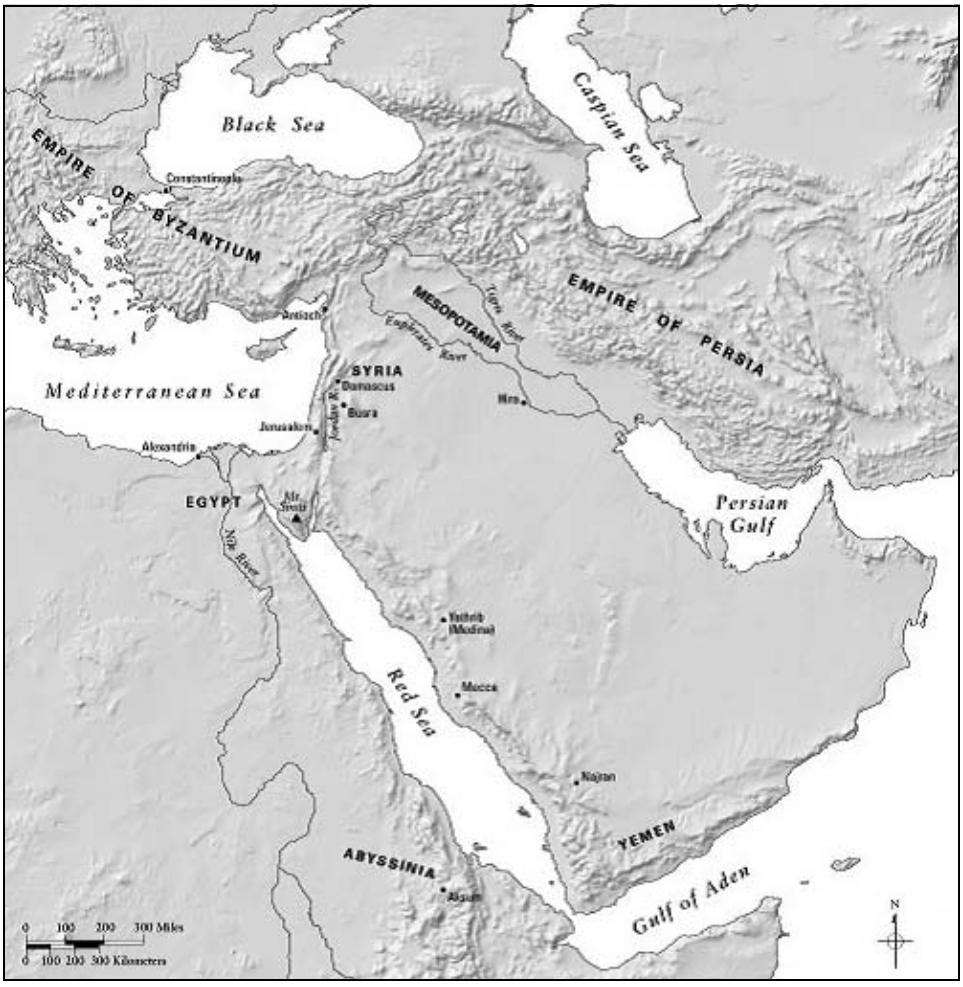

خارطة للشرق الأوسط في بدايات القرن السابع

جدول الأحداث الزمنيّ التقليديّ
من مولد محمّد حتّى موت عليّ

يُمثّل الجدول الزمنيّ التالي نسخة مُبَسَّطة للترتيب الزمنيّ الإسلاميّ التقليديّ لمجريات نشوء الإسلام، بالرغم من أنَّه يتبع التقويم الغريغوريّ القياسيّ، وليس التقويم الهجريّ المستخدم عند العلماء المسلمين في القرون الوسطى الذين كتبوا تاريخ الإسلام المبكّر. العلماء المسلمون على وجه العموم يعتقدون أنَّ محمّدًا كان في الأربعين من العمر (يَعنون أربعين سنة قمريّة، أي أقلّ من تسع وثلاثين سنة شمسيّة) حين دُعِيَ إلى النبوّة. (من المحتمل أنَّهم اختاروا رقم الأربعين لقيمته الرمزيّة). والباحثون الغربيّون الذين طوَّروا هذا الترتيب الزمنيّ البسيط (المستخدم حاليًّا على نطاق واسع) تبعوا على وجه العموم سيرة محمّد في المصادر الإسلاميّة التي وفقها استمرّت حياة محمّد الدعويّة اثنتين أو ثلاثًا وعشرين سنة. وحدّدوا موت محمّد بتاريخ ٦٣٢م، تبعًا للترتيب الزمنيّ الإسلاميّ، رجوعًا إلى الوراء من تواريخ (مثل صعود الخليفة الأمويّ عبد الملك العام ٦٨٥م) وهو تاريخ مؤكَّد من خلال مصادر غير إسلاميّة. لهذا يُحَدِّدون دعوة محمّد إلى النبوّة بالعام ٦١٠م ومولده بالعام ٥٧٠م (بالرغم من أنّه، بحسب السنين الشمسيّة، يجب أن يُحدَّد ذلك التاريخ بالعام ٥٧١م). هذه التواريخ غير مؤكَّدة إلى حدٍّ بعيد. (يستنتج فرانسيس بيتر: «إنَّنا نستسلم عاجزين عند مسألة الترتيب الزمنيّ» [**يسوع ومحمّد**، ٦١]. تربط المصادر الإسلاميّة مولد محمّد بهجوم على مكّة من قِبَل أبرهة الملك من جنوب شبه الجزيرة العربيّة (وفيله)، ولكنّ الحوليّات العربيّة الجنوبيّة تذكر فقط حملة لأبرهة في مركز شبه الجزيرة العربيّة (ولا تذكر هذه الحوليّات مكّة على الإطلاق) جرت العام ٥٥٢م.

لذلك، التواريخ المتعلّقة بحياة محمّد في الجدول الزمنيّ التالي لا يمكن أن تُعَدَّ حاسمة جازمة. حتّى التواريخ المتعلّقة بحقبة «الخلفاء الراشدين» (أي من موت محمّد

إلى موت عليّ) غير مؤكدّة إلى حدّ بعيد. على سبيل المثال، في هذا الجدول الزمنيّ، معركة اليرموك، المعركة الأهمّ ضدّ البيزنطيّين في الفتوحات الإسلاميّة الأولى، محدّدة بالعام ٦٣٦م. ولكنّ عددًا من المصادر (وضمنها الطبري المؤرّخ الإسلاميّ العظيم) يجعل هذه المعركة في فترة حكم الخليفة أبي بكر، الذي مات، بحسب الجدول الزمنيّ المبسّط في ما يلي، العام ٦٣٤م. وأكثر من هذا، الجدول الزمنيّ اللاحق يتجاهل مسألة تاريخيّة الأحداث المدرّجة في الجدول، وهي مسألة يتصدّى لها هذا البحث جزئيًّا. بناءً على ما تقدّم، أولى بالجدول الزمنيّ التّالي أن يُنْظَرَ إليه بوصفه إطارًا لرواية جذور الإسلام التقليديّة، وليس بوصفه تقريرًا عن أحداث تاريخيّة معروفة تمامًا.

جدول تتابُع الأحداث الزمنيّ التقليديّ

٥٧٠م ميلاد محمّد، عام الفيل، وموت عبد الله والد محمّد.
٥٧٦م موت آمِنَة أمّ محمّد.
٥٧٨م موت عبد المطّلب، جدّ محمّد.
٥٨٣م رحلة محمّد إلى بلاد الشام برفقة عمّه أبي طالب.
٥٩٥م محمّد يتزوّج خديجة.
٥٩٩م ميلاد عليّ بن أبي طالب، ابن عمّ محمّد وصهره.
٦٠٥م ميلاد فاطمة بنت محمّد وخديجة (وزوجة عليّ بن أبي طالب).
٦١٠م دعوة محمّد إلى النبوّة في جبل حراء خارج مكّة. قبول خديجة وعليّ وأبي بكر بالإسلام.
٦١٤م هجرة المسلمين إلى الحبشة.
٦١٩م موت أبي طالب وخديجة.
٦٢٠م ليلة إسراء محمّد من مكّة إلى المقدس ومعراجه إلى السماء من المقدس.
٦٢١م خطوبة محمّد لعائشة بنت أبي بكر.
٦٢٢م الهجرة، أي هجرة محمّد إلى يثرب (المدينة تاليًا). السنة الأولى بحسب التقويم الإسلاميّ.
٦٢٤ نصر المسلمين في معركة بدر. طرد قبيلة بني قنيقاع اليهوديّة من المدينة.

٦٢٥م نصر وثنيّي مكّة في معركة أُحد. طرد قبيلة بني النضير اليهوديّة من المدينة.
٦٢٧م إخفاق وثنيّي مكّة في هجومهم على المدينة في معركة الخندق. مذبحة واستعباد بني قريضة.
٦٢٨م صلح الحديبيّة. رسل محمّد إلى قادة العالم.
٦٢٩م حجّ محمّد إلى مكّة.
٦٣٠م فتح مكّة. نصر المسلمين في معركة حنين.
٦٣١م حملة تبوك على المسيحيّين العرب حلفاء البيزنطيّين.
٦٣٢م حجّة الوداع لمكّة.
موت محمّد. مبايعة أبي بكر خليفة.
موت فاطمة. بدء حروب الرّدّة.
٦٣٣م نصر المسلمين على قوّات مُسليمة الكذّاب.
٦٣٤م موت أبي بكر. مبايعة عمر خليفة ثانيًا، عُرِف بلقب «أمير المؤمنين»، لحملاته العسكريّة الهجوميّة.
٦٣٥م معركة الجسر. فتح المسلمين دمشق.
٦٣٦م نصر المسلمين في معركة اليرموك ومعركة القادسيّة.
٦٣٧م فتح المسلمين القدس. عُمَر يُستقبل شخصيًّا من قِبَل البطريرك صفرونيوس.
٦٤١ فتح الإسكندريّة.
٦٤٤م إغتيال عُمَر. مبايعة الخليفة الثالث عثمان بن عفّان.
٦٤٦م بعد إنجاز فتح معظم إيران، تتحرّك الجيوش الإسلاميّة نحو خراسان، أرمينيا وَآسيا الصغرى.
٦٤٨م الجيوش الإسلاميّة تتابع تقدّمها عبر شمال أفريقيا. فتح المسلمين جزيرة قبرص.
٦٥٠م عثمان يُضيّع خاتم التوقيع؛ فيصبح حكمه أكثر فأكثر عديم التقوى.
٦٥١م يزدجرد، آخر إمبراطور ساسانيّ فارسيّ يُقْتَلُ في مدينة مرو المدينة الأسيويّة المركزيّة.
٦٥٦م مقتل عثمان بأيدي محتجّين من مصر. عليّ يصبح الخليفة الرابع. معركة الجمل ضدّ عائشة وحلفائها.

٦٥٧م معاوية وعليّ يتواجهان في معركة صفّين التي تنتهي باتّفاق على التحكيم.
٦٥٨م عليّ يهزم أتباعه السابقين الخوارج في معركة النهروان.
٦٦١م إغتيال عليّ بن أبي طالب بيد الخوارج. مبايعة معاوية خليفة فيؤسّس حكمه في دمشق.

شجرة عائلة النبيّ محمّد
بحسب السيرة التقليديّة

إنّ الرسم البيانيّ للأنساب المقدَّم هنا يُصوّر الفهم الإسلاميّ لمحمّد بوصفه سليل إبراهيم عبر إسماعيل وعلاقته - من خلال الميلاد أو الزواج - بتلك الشخصيّات التي تؤدّي دورًا مِفتاحيًّا في رواية نشوء الإسلام التقليديّة. إنّه رسم بيانيّ مُبَسَّط للأنساب لأنَّه لا يتضمّن شخصيّاتٍ أُخرى: زوجاته الأخريات ومولوديه على سبيل المثال.

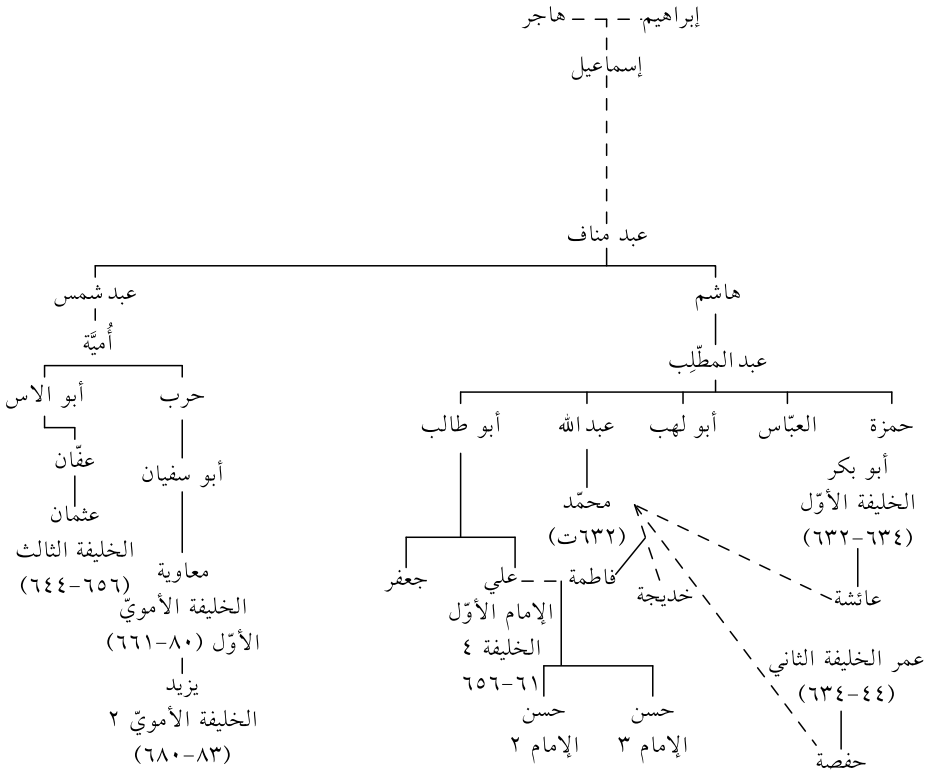

القسم الأوّل

النبيُّ محمّد والخلفاء الراشدون

مقدِّمة للجزء الأوّل:
إطلالة تاريخيّة

إنّ الإسلام اليوم ديانة عالميّة لها أتباع من أمم وأعراق وثقافات متنوّعة. لكنّ جذورهُ ضاربة في جماعة بشريّة خاصّة: عرب أواخر العصور القديمة. عاش العرب آنذاك في منطقة تمتدّ من اليمن الحديثة جنوبًا إلى جبال طوروس في تركيا الحديثة، ومن ساحل المتوسّط غربًا إلى نهر دجلة شرقًا. وكان بعضُهم بدوًا وبعضهم حضرًا وبعضهم عاش بين أقوامٍ أخرى في المنطقة. مُعظم الأقوام الأخرى كانوا من النّاطقين بلهجة آراميّة (لغة السيّدِ المسيح) تدعى السريانيّة، بالرغم من أنّ كثيرين في المدن الكبيرة نطقوا باليونانيّة. في الوقت الذي كان فيه اليهود يشكّلون أقليّة كبيرة في اليمن والإسكندريّة ودمشق كان معظم سكّان منطقة الشرق الأدنى في فترة نشوء الإسلام من المسيحيّينَ. وكثيرون من العرب أنفسهم تبنّوا المسيحيّة، بل نطق بعضهم بالسريانيّة إلى جانب العربيّة.

إنّ الانطباع عن العرب بصفة جماعة عرقيّة موحّدة تكوّن ونما بالتدريج فقط. و**الكتاب المقدّس** بوجهٍ عامّ يشير إلى «العرب» بالطريقة ذاتها التي يشير وفقها إلى «الإسماعيليّين». يبدو أنّ التسميتين كلتيهما أشارتا إلى البدو. أشعيا (١٣: ٢٠) يتكلّم على صيرورة بابل بلقعا لا ينصب فيه «عربيّ» خيمةً. ويروي سفر التكوين خبر مرور «الإسماعيليّين» على جمالهم بشكيم وشرائهم ليوسف (تكوين ٣٧: ٢٥). [المترجم: في النسخة السريانيّة المعروفة بالبسيطة (القرن الثاني الميلاديّ) ترد كلمة «عرب» ترجمةً لكلمة «إسماعيليّين» في النسخة العبريّة].

ثمّة كتابات يهوديّة ومسيحيّة ترجع إلى ما بعد **الكتاب المقدّس** ولكن إلى ما قبل الإسلام تُشير إلى المتكلّمين بالعربيّة بأسماء قبائلهم. وفي بعض الحالات، كلّ الناطقين بلهجة عربيّة يُدعون «هاجريّين» أو «إسماعيليّين». وهذان المصطلحان

الأخيران يُبرزانِ ربطًا قام به اليهود والمسيحيّون بين القبائل الناطقة باللغة العربيّة، والتي سكنت الخيام وعاشت في الصحراء، وبين رواية **الكتاب المقدّس** عن طرد إبراهيم لهاجر وابنها إسماعيل إلى متاهة الصحراء (تكوين ٢١: ١٤).

الكتّاب المسيحيّون البيزنطيّون الناطقون باليونانيّة استخدموا لفظ «سَراسين» (وهو لفظ أصبح لاحقًا يُستخدم بمعنى «عرب» في الغرب اللاتينيّ) للدلالة على الناطقين بالعربيّة، وهو اسم مشتقّ من الصيغة اليونانيّة لاسم قبيلة عربيّة شماليّة. بعض الكَتَبَة المسيحيّين يحاولون أن يُثبتوا أنَّ الناطقين بالعربيّة أنفسهم استخدموا هذا المصطلح «سَراسين» (ربّما من عصر جيروم ٤٢٠م) في محاولة لربط أنفسهم بسارة ليُخفوا تحدّرهم من هاجر. ربط آخرونَ لفظ «سَراسين» باللفظ اليونانيّ «سكينتيا» أي «سكّان الخيام». والفكرتان كلتاهما تعكسان فكرة مفادها أنّ العرب بدو من سكّان البادية.

و**القرآن** من جهته يقدّم نفسه إلى العرب قائلًا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ (سورة يوسف ١٢: ٢). هذه الآيات توحي بأنّ قصّة نشوء الإسلام لا تتضمّن فكرة نشوء ديانة جديدة فحسب، بل فكرة وحدة القبائل الناطقة بالعربيّة وبروز فكرة أنّهم يُشكّلون شعبًا واحدًا: جميعهم عرب نسل إبراهيم عبر إسماعيل (كما أَنَّ اليهود نسل إسحق).

إنّ هذا الربط بين إبراهيم والعرب والإسلام مُعَبَّرٌ عنه في سلالة نسب محمّد. بالرغم من أنّ الفكرة غير مُصرَّح بها في **القرآن**، نجد أنّ المسلمين يعدّون محمّدًا من نسل إبراهيم عبر إسماعيل؛ ويروون أيضًا أنّ محمّدًا التقى بإبراهيم عند معراجه إلى السماء واكتشف أنَّهما مُتشابهان. بناءً على ذلك، نرى أنّ محمّدًا يُقدَّم على أنّه «إبراهيم جديد». هذا التقديم، على وجه الافتراض، قدّم طريقة إلى المسلمين الأوائل لفهم دينهم والدفاع عنه في بيئة الشرق الأوسط في القرن السابع الميلاديّ. والمسلمون، بهويّتهم الإثنيّة العربيّة، وبهويّتهم الدينيّة المتمثّلة في كونهم نسل إبراهيم، تمكَّنوا من الدخول في الجدالات الدينيّة التي كانت قد نشبت سلفًا بين المسيحيّين واليهود، وكذلك بين المسيحيّين والمسيحيّين بمختلف طوائفهم.

ومع ذلك لم يظهر المسلمون بصفة إرساليّات تسعى إلى تلمذة أناسٍ من أُمم أخرى. لقد ظهروا فاتحين أخضعوا أُممًا أُخرى لسلطانِهم. وطوال ثلاثينيّات القرن

السابع الميلاديّ اجتاحت الجيوش العربيّة الشرق الأدنى. الإمبراطوريّة الفارسيّة الجبّارة انهارت تمامًا في وجه هجماتهم (آخر إمبراطور فارسيّ قُتِلَ العام ٦٥١م.). والإمبراطوريّة البيزنطينيّة صمدت في وجه الفتوحات الإسلاميّة، ولكن بعد تأسيس خطّ دفاع أخير في جبال طوروس في بداية الأربعينيّات من القرن السابع الميلاديّ. في تلك الأثناء خسر البيزنطينيّون سورية وفلسطين (بما في ذلك المدينة المقدّسة أورشليم) ومصر لتقع تحت سيطرة المسلمين.

بين موت محمّد (بحسب التقليد العام ٦٣٢م) وانتقال العاصمة الإسلاميّة من المدينة إلى دمشق العام ٦٦١م، احتلّت الجيوش المسلمة منطقة تمتدّ من ليبيا الحديثة غربًا إلى أفغانستان الحديثة شرقًا. وهكذا ظهر الإسلام دينًا ودولةً. هذه الدولة أعلنت للعالم أنّ نبيًّا جديدًا قد ظهر، نبيًّا صحّح ضلالات اليهود والنصارى، وَأرشد أتباعه كيف يؤسّسون قانون الله، أي الشريعة على الأرض.

هذا الكتاب يبدأ مع قصّة هذا النبيّ، محمّد بن عبد الله، الذي بحسب التقليد وُلِدَ في مدينة مكّة الواقعة في غرب الجزيرة العربيّة. في روايتي لهذه القصّة سأعتمد على أقدم المصادر الإسلاميّة، ولاسيَّما سيرة النبيّ محمّد لابن إسحق (ت ٧٦٧م) الذي من المدينة والذي يُعَدّ عمله هذا على أوسع نطاق أقدم رواية لحياة محمّد. وسألتفت أيضًا إلى أحاديث عن محمّد أو مرويّة عنه حُفِظَتْ بالبخاري (ت ٨٧٠) - المُصَنّف الأشهر لهذا النوع من التقاليد - وعلى سيرة محمّد في التاريخ الضخم لأبي جعفر الطبري (ت ٩٢٣م) الباحث الذي تُمثّل أعماله في **القرآن** والتاريخ الإسلاميّ ملءَ التقليد الإسلاميّ الكلاسيكيّ. حين أشيرُ في الفصول التالية إلى «السيرة التقليديّة» للنبيّ محمّد، أو إلى «المصادر الإسلاميّة الكلاسيكيّة»، أقصد فوق كلّ شيء هذه الكتب الثلاثة.

وفي أثناء الحديث عن محمّد سأُحيل قارئي إلى **القرآن**، الكتاب الذي وُجِدَ في السَّماء حتّى قبل ميلاد محمّد، بحسب الاعتقاد الإسلاميّ السائد. منذ اللحظة التي دعا فيها الله محمّدًا ليكونَ نبيَّهُ العام ٦١٠م، بدأ يرسل جبريلَ ملاكَه بفقرات من هذا الكتاب السَّماويّ إلى محمّد، وثابر على ذلك حتّى موت محمّد العام ٦٣٢م. أعلن محمّد هذه الموحَيات لصحابته، ولكنَّ جمع القرآن وتصنيفه كان عمل خلفائه السياسيّين، الخلفاء.